احدى روايات الجامعة

لم تُنشر قبل الان

ابن الشعب

تمهيد

اعظم جوق للتمثيل العربي في مصر جوق الشيخ سلامه حجازي كما هو مشهور. وسننشر في اجزاء تالية رأينا في التمثيل العربي في مصر واجواقها وروايتها وما كان يدور بيننا وبين الشيخ سلامه حجازي وسائر مديري الاجواق العربية في مصر من البحث في حالة التمثيل والاجواق والجمهور المصري وكتاب الروايات . اما الان فنلخص لقراء الجامعة الرواية الجديدة التي اخذها منا الشيخ سلامه هذا العام ومثّلها قبل سفرنا من الاسكندرية في ملعبه في القاهرة وملعب زيزينيا في الاسكندرية . وقد اشترى الشيخ حق تمثيل هذه الرواية من صاحب الجامعة بسبعين جنيهاً انكليزياً وقال حين دفعه اليه : انه اغلى ثمن بيعت به رواية عربية من حين إنشاء الروايات باللغة العربية . فليت الشيخ سلامه ذكر اثمان الروايات الافرنجية حين ذكره اثمان الروايات العربية

اما موضوع الرواية فهو موضوع اجتماعي سياسي عائلي مقرون بحبٍ طاهر كريم . لاننا لا نستحسن الروايات المبنية على الغرام والحب دون فائدة تُذكر للجمهور . بل اننا نفرّ منها كما فعلنا في جميع رواياتنا لمعرفتنا ان الكاتب الذي يستحق ان يسمى كاتباً عليه ان يتحاشى تسميم نفوس قرائه بالغرام الفاسد والحب البارد الذي تُبنى عليه اكثر الروايات . قال جول سيمون « انني اتاسف لما صار اليهِ كتاب الروايات من النفوذ والتأثير . وذلك انما يعتمدون على احتكاك العواطف والصراع الذي يصوّرونه بينها . والفضيلة لا يكون لها على الدوام هذه النتيجة البرّاقة » — وكم من بنات وشبان افسدت روايات الغرام والخلاعة اخلاقهم بعد الصلاح . والمحاكم في اوروبا واميركا تراً ف بهم متى مثلوا لديها لجرم اقترفوه اعتماداً على انهم ما دُفعوا الى الشر الا بتلك المطالعة الرديئة . فنرجو ان ينتبه الى هذا الامر امهات العائلات في اميركا لا من جهة الروايات العربية فقط بل من جهة الروايات الافرنجية ايضاً لاننا نرى هنا الاقبال عظيماً على هذه الروايات

١

كان للدكتور غراي طبيب بلدة درلنتن في انكلترا يطالع في غرفة المطالعة في بيته في الليل واذ قُرعت نافذة غرفته ودخل سائق وراءه رجل متنكر وسيدة . وكانت السيدة على وشك الوضع فاخذ الدكتور يهتم لتوليدها . واذ خرج الدكتور ليدعو زوجته آنّا لتساعده على الاعتناء بالسيدة المتألمة قالت هذه السيدة لرفيقها : آه ما اشد ما اشعر به من الالم . ولكن لماذا لا ترفع الوجه المستعار الذي يستر وجهك يا روبنصن . فاجاب رفيقها . اخاف ان يكون احد من اهل المنزل قد رآني في لندن يوماً من الايام . فقالت وهل كنت ذا شهرة فيها . فقال نعم . . . ولكن دعينا من هذا الموضوع . فقالت السيدة : وابي ؟ فقال آه من ابيك . قالت لا تلمه لانه يحبني . . روبنصن روبنصن اذا وقعتْ عيني على ابي قبل ان اصير زوجتك متُّ من الخجل والعار

وهنا عاد الدكتور بزوجته آنّا . فاصطحب الدكتور السيدة المتالمة الى غرفة عيادته لمعالجتها وبقي روبنصن مع آنا فبعد كلام طويل اتفقا على ان يبقى لها الطفل الذي ستضعه السيدة وذلك لكي تربيه لها وفي مقابلة ذلك يبعث اليها في كل عام بمبلغ كافٍ من المال . فسالته آنا وماذا تسميه . فسالها ما اسم هذه البلدة فاجابت « درلنتن » فقال اذا كان الطفل غلاماً فسميه ريشار او ابنة فسميه كارولين درلنتن

وانهما في هذا الحديث واذ عاد الدكتور مهرولاً وصارخاً : بشراك بشراك . فصاح الرجل ماذا ؟ فقال الدكتور : غلام غلام سمين . فصاح الرجل دعني ابكي . فقال الدكتور ليس الوقت وقت البكاء اذهب وقبّل امرأتك

ولم يكد يدخل روبنصن الى حيث كانت امرأته حتى قرع رجال الشرطة باب الدكتور وصاح صائح : افتح الباب باسم الملك والاّ كسرناه ودخلنا . فدهش الدكتور وقال : من انت ؟ فاجاب الصوت : نحن رجال الشرطة افتح يا حضرة الدكتور ولا توقع نفسك في شر عظيم . ففتح الدكتور الباب مضطرباً فدخل ضابط بوليس وجنديان ورجل عليه لوائح الكبرياء والاضطراب . ولما دخل هذا الرجل صاح : اين الدكتور غراي ؟ فاجاب الدكتور انا هو . فهجم عليه الرجل وصاح باعلى صوته : لا اطلبها الا منك لانها في بيتك

وكان هذا الرجل يدعى المركيز سيلفا وكان يحمل من الملك جورج الرابع امرًا هذا

نصه « امر لحامل هذا الخط بالقاء القبض على المرأة التي يعينها » فلما قرأ الدكتور هذا الامر ضحك وقال « الظاهر انك عظيم النفوذ والجاه حتى استطعت الحصول على امر كهذا الامر ضد سيدة في بلاد حرة كبلادنا »

واذ سأل ضابط البوليس الدكتور عن مكان السيدة اجابه الدكتور انها عنده . فصاح المركيز وهمّ بالدخول اليها فوقف الدكتور في وجهه وصده عن الدخول . فصاح المركيز : ولكنها ابنتي ابنتي واللئيم خدعها واختطفها . فقال الدكتور اذا كانت ابنتك فاسمح لك برؤيتها ولكن لا اسمح لك باخذها . فصاح المركيز : حذار ايها الرجل ولا تقل قولاً يدلّ على عصيانك امر الملك ورجال الشريعة . فرفع الدكتور هنا راسه وقال : انا في هذه المسالة فوق الملك والشريعة . ولذلك اقول لك مرة اخرى انك لا تاخذها وان كنت اباها فقال المركيز وما السبب ؟ فقال الدكتور لانك اذا اخذتَ الفتاة الان كنتَ كمن يتعمد قتلها فاذا بقيتَ مصرًّا على عزمك طلبتُ من رجال الشريعة كطبيب ان يساعدوني لانقاذ حياة انا الان وحدي مسئول عنها لدى الله والناس . فقال المركيز اوضح كلامك فما فهمت شيئًا . فقال الطبيب : ان الفتاة التي تطلبونها قد وضعت غلامًا منذ بضع دقائق

فصاح المركيز بجنون : فلتكن ملعونةً اذا كنت صادقًا فيما قلته . ثم هجم على الباب للدخول وكانت السيدة قد سمعت صوته فصاحت من الداخل : ابتاه ابتاه ثم احتملت نفسها وخرجت من غرفتها منثورة الشعر صفراء اللون واهية العزم مرتجفة مضطربة كما تكون المراة بعد آلام الولادة . ولما وقع نظرها على ابيها انطرحت على قدميه صارخة : ابتاه ابتاه . فصاحت بها آنا وكانت قد تبعتها مهرولة ماذا تفعلين الا تخافين الموت ؟ فاجابت ما احلى ان اموت تحت قدميه . فصاح بها ابوها بغضب وكبرياء : انهضي . فاجابت لا لا دعني يا ابتِ تحت قدميك دعني اقبّلها واسحقني بهما . فصاح ويلكِ يا شقية فقالت نعم انا الشقية انا اللئيمة العقوقة افرغ كل غضبك عليّ وحدي اما هو فلا ذنب له غير منعه اياي من اطلاعك على حبنا فقال كفى كفى هلمي واتبعيني فاجابت لا استطيع ذلك يا ابتِ فقال بضحكة صفراء : أإلى هذا الحد تخافين الموت فاجابت مشيرة الى روبنصن : كلا ولكني اخاف فراقه فقال ويل لكِ ما اتعسكِ أإلى هذا الحد تحبينه ؟ قالت نعم احبه حب روحي لجسدي فقال ولكن هذا الرجل حبه العار والشنار وجهنم النار تعالي . قالت آه وولدي فقال سيلفا الدكتور يربيه فصاحت لا لا . . لا افارق ولدي ان الله يعطي الام ولدًا لتحنو عليه وتربيه لا

لتهجره وترميه فدعني آخذ ولدي فقال هذا محال فصاحت الام : اذًا انا اصرخ وابكي انا استغيث بكل ذي شهامة ومروءة فيسمع كل ذي مروءة صراخي ويغيثني . ابي دعني آخذ ولدي ولا تحرمني فلذة كبدي فاني لم اهنأ بعد برؤيته وتقبيله بل لم امسسه بعد بيدي

فصاح سيلفا وقد اشار الى الرجال بحملها : ساعدوني ايها السادة فهجم روبنصن للدفاع عنها فصاحت تريد رده : حبيبي روبنصن ! فقال سيلفا بغضب تقولين حبيبك روبنصن ولكن انظري من هو حبيبك ثم انتزع من رأس روبنصن الوجه المستعار الذي يستر وجهه وقال : انظري حبيبك روبرصن هل عرفتهِ ؟ قالت كلا . فقال : هذا جلاد مدينة لندن . فصاحت تلك المرأة المخدوعة صيحة عظيمة واغمي عليها

وقد دعوا الطفل الذي وُلد في هذا (الفصل التمهيدي) ريشار درلنتن حسب وصية ابيه وهو بطل الرواية

٢

ولما شبَّ ريشار وبلغ السابعة والعشرين اصبح شابًا شديدًا قوي العارضة في المعارضة فمال للسياسة واشتغل بها . وكان يظن نفسه ابن الدكتور غراي وقد رزق الدكتور ابنة دعاها (جاني) فكان ريشار يظن انها اخته . اما جاني فمذ بلغت سن الرشد اخبروها انه لم يكن اخاها . ففي ذات يوم كان انتخاب في بلدة درلنتن فحشر ريشار نفسه في جملة المرشحين للنيابة في مجلس النواب . فقال له الدكتور : اذكر انك لا تزال شابًا يا ريشار . فاجاب ريشار : ان بيتْ صار وزيرًا في الثانية والعشرين من عمره . ثم ذهب ريشار الى ساحة الانتخاب مع الدكتور وصديق له يدعى (مبراي) وبقيت آنا وابنتها جاني في البيت فلما خرج ريشار اخذت جاني تطيل النظر الى حيث خرج وقالت مبهوتة حزينة : ذهب لا سلام ولا كلام . وكانت امها قد لاح لها انها اصبحت تحبُّ ريشار . فسألتها بماذا تفكر فبكت جاني . فقالت لها امها : امسكي دموعكِ يا بنية فان الله يعطي البشر الدموع ليذرفوها في المصائب الحقيقية لا في الآلام الصغيرة الوهمية . وكل انسان لا يذهب من هذا العالم قبل ان يذرف فيه ما اعطاه الله من الدموع . ثم خرجت آنا من غرفتها بعد ان القت على ابنتها النصائح التي على الام القاؤها في حال كهذه الحال . فبعد خروجها خلت جاني بنفسها واخذت تقول

احقًا ما تقول الان امي فيا حزني ويا طول اكتئابي

ايحسبني شقيق الروح اخناً ... فيا ويلاه من هذا الحساب
قليلٌ منه حبُّ اخٍ لاختٍ ... وما هو غير ميلٍ وانجذابِ
لقد صدقتْ فليس يحنّ مثلي ... وليس به من التبريح ما بي
اذا اخذتْ يدي يده فجسمي ... لذلك في ارتعاش واضطرابِ
ويبدو عند ذلك ذا جمودٍ ... اروح له واغدو في ارتيابِ
ولست اراه ذا ولعٍ بشيءٍ ... سوى بسياسة او بانتخابِ (١)

لكنها لم تتم كلامها هذا حتى فُتح الباب بعنفٍ ودخل ريشار مضطربًا اصفر الوجه . وكان انه لما تقدم للانتخاب افشى خصمه ومزاحمه سرَّ نسبه فسقط حقه في الانتخاب . فلما ابصر ريشار جاني صاح . أكنتِ تعلمين اسمي ياجاني وكتمتِهِ عني . قولي لي ما اسمي لاذهب الى اولئك اللئام واخبرهم ان لي اسماً كاسمائهم وان لي فوق ذلك ما ليس لهم وهو عقل مفكّر وقلب متقد . قولي لي اسمي والاَّ اصابني اليأس واضعت آمالي . ولكن لا لا . لا اضيع امالي . اذ كيف استطيع ان ارى ما في هذا الدماغ الملتهب خامدًا . وما في هذا القلب المتحرك جامدًا . خُلقت لاقود امة . خلقت لاكون زعيم شعب يدوي صوته على منبر المجلس في انكلترا كلها . فويل لاولئك الذين قصوا جنحي بكلمة واحدة . غير ناظرين انه جنح نسر عظيم

وهنا قُرع الباب وجاء رجل موفد الى ريشار من قِبل حزبه ليبلغه انه لم يخسر كل شيءٍ كما ظن فانه اذا تزوَّج بجاني صار ذا اسم وملك فيمكنه حينئذٍ النيابة عن اصحاب الاسماء والاملاك . وكان هذا القول في غياب جاني لانها خرجت حين دخول الرجل . فلما انصرف الرجل وعادت رأت ريشار مسرورًا . فقالت له اراك مسرورًا مع انني فارقتك مضطربًا حزينًا فضحك ريشار وقال لم ياتني بالسرور هذا الرجل ياجاني وانما وجدته في

---

(١) رغبةً في اعطاء هذه الرواية التمثيلية مزية خصوصية عهدنا بنظم شعرها الى ثلاثة من مجيدي النظم في مصر وهم حضرات احمد افندي محرم واحمد افندي الكاشف ومصطفى افندي صادق الرافعي وكلهم شعراء مشهود لهم بالشاعرية . وقد اختلطت انفاسهم في الرواية الاَّ ان كل واقف على شعرهم يقدر ان ينسب الى الشاعر شعره من مجرد الوقوف عليه وسيرى القارىء في الابيات التالية شعرًا لا ارق ولا اصفى منه ونغتنم هذه الفرصة لشكر حضراتهم على تفضلهم بنظم هذه الابيات للرواية

نفسي. فقالت ما فهمت كلامك فقال ضاحكاً ايضاً انا لست ابن الدكتور غراي ياجاني. فقالت ضاحكة وهل يسرك ان لا تكون ابناً له ايها الابن العقوق فقال نعم يسرني ان لا اكون ابناً للدكتور غراي لانه يسرّني ان لا اكون اخا جاني

فاضطربت جاني وقالت ماذا تقول فقال اقول ويلٌ لي اذا لم تفهمي كلامي ياجاني. فاجابت بجدّ ورزانة مستر ريشار ما فهمت شيئاً وكانت هذه اول مرة دعته بها (مستر) فقال لها ما هذا الجدّ ياجاني فقالت وانت ما هذا الانقلاب يامستر ريشار فقال ريشار سببه السر الذي عرفته فقالت ولكنك كنت عارفاً بالسرّ حين دخولك الى هنا ومع ذلك كنتَ منقبضاً مضطرباً فقال ريشار: جاني اعطيني يدكِ فاخذ يدها وقال في نفسه (يدها ترتجف) ثم انشد (١)

لما عرفتُ السرَّ كان الردى ... احبَّ لي من وقعهِ الفاجعِ
نخلتُ آمالي قد ضُيّعت ... وانتِ في مأمولي الضائعِ
حتى اراني القلب ان الهوى ... باقٍ وجاني للفتى الجازعِ
اهواكِ ياجاني ولم يبقَ لي ... غير هواكِ المالك الشافعِ

ولا يزال بها حتى تصرح له بانها تحبه. وفي هذا الحين دخل ابوها وصديقه مبراي ففرت جاني وبقي ريشار فساله الدكتور لماذا تركت الانتخاب وعدت بغتةً مع انك لم تخسر كل شيء. فاجاب لما علمت السرّ يا ابتِ عدتُ لاسال جاني ان تحسبني اخاها على الدوام حتى اذا رضيت بذلك سالتك ان تبقيني ابناً لك. فضحك الدكتور لانه فهم مراد ريشار. فارسل في طلب امرأته. ولما تشاورا في تزويج ريشار بجاني قالت له امراته انني اخاف على جاني من اخلاق ريشار لانني اراه طامعاً في العلى. فاجاب وهل تخافين شهوة الطمع. فقالت بل اخافها على ابنتنا لا عليه لان هذه الشهوة قد تبلغ به الى قمة المجد. ان قلب الامّ لا يكذب يا البرت وقلبي يحدثني ان جاني لا تكون سعيدة مع ريشار. فانهما مختلفان خلقاً ومشرباً. ريشار شديد هائل كالصاعقة يصعق كل صعب يعترض إرادته

---

(١) وهذا اول نشيد ينشده الشيخ سلامه في هذه الرواية وان ملائكة السماء تنشد معه لما يقول في آخر بيت (اهواكِ ياجاني ولم يبقَ لي) ولم ينشد قط هذه الابيات مرة واحدة فانهم يستعيدونها مرتين او ثلاثاً واذا تمنع فانهم يصفقون ويجلبون ولو كسروا الكراسي والالواح حتى يعود الى الانشاد

محب مثلها للعلى فلا يرضى غير السحاب مقعدا . والفضاء الواسع مدى . وجاني لطيفة هادئة متضعة كبنفسجة ترى رغدها في الاستتار بين الاعشاب لنشر شذاها دون ان ترفع رأسها . والناس قلما ينظرون الى انطباق اخلاق الزوج على اخلاق الزوجة حين إرادة الزواج . فهل تريد ان تفعل كباقي الناس

ولكن الدكتور اقنع زوجته بتزويج جاني من ريشار لانهما متحابان (١) ورغبة في طمأنينتها قال لها ان صديقها (مبراي) يسهر عليها ويرعاها اذا توفاها الله اليه بعد زواجها . ثم نادى ريشار وقال له هذا القول الذي كانت تقشعر له جلود الناس في المرسح رجالاً وسيدات

— ريشار اسمع يا بني . اني امام هذا الصديق الحميم الذي هو وحده شاهد علينا . وامام الله الناظر الان من علاه الينا . اعطيك انا وامرأتي يد جاني بعد ان اعطتك هي قلبها فليكن لك عليها حقوق الزوج . ولتحل سلطتك محل سلطتنا عليها . ولكن انظر قبل ذلك الى هذه الدموع التي تترقرق في عيني امها واصغ الى صوتي المرتجف من تأثري وانفعالي . ان ابًا وامًا يضعان الان بين يديك اغلى ما لديهما في الوجود . ويمنحانك نفساً مركبة من نفسيهما . فاجعل هذه النفس سعيدة يا ريشار تحسن الينا كما احسنا اليك وعظامنا تدعو لك من تحت الثرى

فقال مبراي : ريشار ان الله يسمع الان هذا الكلام

فاجاب ريشار : وقلبي يسمعه ايضاً يا سيدي

فقالت آنًا : جاني كوني زوجة صالحة

فاجابت جاني : ساقتدي بك يا اماه

وهنا ذكر ريشار الانتخاب فقال على حدة : اف لقد اضعنا الوقت في الكلام الفارغ . ثم قال اريد لونًا اتخذه شعارًا لحزبي . فدنا من جاني وحلّ (شريطة) زرقاء كانت مزنرة بها وقال : سيكون شعاري بهذا اللون

وشعاري اتخذته ازرق اللون لسرّ يدريه اهل الذكاء
انني ابتغي سموًا على الناس جميعًا فاخترتُ لون السماء

---

(١) هنا غرض من اغراض الرواية اي الزواج حبيًا دون اتفاق اخلاق الزوجين

٣

هذان فصلان من الرواية . والفصل الثالث ساحة انتخاب في بلدة درلنتن . وقد أتقن الشيخ سلامه هذا الفصل ترتيباً وملابس فكان بدعة جديدة وتحفة الملاعب العربية كما قال كل من شاهدوه . فلما صار ريشار بين حزبه في ساحة الانتخاب هتف له حزبه وكلهم يحملون شعاراً ازرق . اما مزاحمه في الانتخاب السر ستنسن فلون حزبه اصفر . فخطب ريشار في الجمع من شرفة الحانة خطبة دعا فيها الى انتخابه لتحصيل حقوق الشعب وكف يد نبلاء المملكة عن الاستبداد بشؤون الامة الانكليزية . وقد جاءت هذه الرواية في حينها فان وزير العمل والتجارة الانكليزية ألقى في هذا العام خطبةً دوى صداها في جميع انحاء العالم اذ قال ان مجلس النبلاء (اللوردات) الانكليزي عثرة في سبيل الاصلاح في انكلترا لانه لا يقرر الا النظامات التي تنفع الطبقات العالية ويهمل كل ما فيه نفع الشعب . ولم يحمل وزير على مجلس اللوردات هذه الحملة الشديدة غير المستر غلادستون رجل انكلترا العظيم . ولا عجب فان المستر غلادستون كان نصير الشعب ولما راموا منحه لقب (لورد) أبى قبوله لانه يفضل عليه لقب (مستر) . ووزير التجارة والعمل الحالي انما كان عاملاً من العملة قبل دخوله في مجلس العموم وارتقائه الى دست الوزارة وقد قال ريشار في خطبته : اني انا (ابن الشعب) اخوكم وابنكم اتيتُ استنجدكم على اعدائكم . فان ساعدتموني رفعت شأنكم وحفظتُ حقوقكم . اني اطلب مساعدة الزرق لا الصفر . ايها الصفر تريدون الذهب فاذهبوا الى عائلة دربي (التي منها مزاحمه ستنسن) فانه لونهم وشعارهم . ويا ايها الزرق تريدون ردّ حقكم المسلوب ومالكم المنهوب فامنحوني اصواتكم . انتخبوني نائباً عنكم اكن لكم سيفكم الذي به تضربون . وتكونوا لي درعي التي بها اتقي . ولا تنسوا ان يد الله مع الجماعة . وان صوت الشعب صوت الله

ففي اثناء هذه الخطبة هتف الزرق وصفقوا طرباً والصفر صفروا وعارضوا . فكان لذلك في (المرسح) منظر مضحك فهقه له الجمهور مرات خصوصاً حين كان يشتبك الحزبان ضرباً ولطماً (بالبوكس) . ثم خطب السر ستنسن مزاحم ريشار فكان الزرق يصفرون له ويقطعون كلامه والصفر يصفقون له ويهتفون ورايات الحزبين تتماوج في الهواء فوقهما والبائعات يبعن للحزبين (شرائط) زرقاء وصفراء . ثم اعلن مأمور الانتخاب اقفال صندوقة الاوراق وعدّها فاصابت الاكثرية المستر ريشار فاعلن انتخابه نائباً عن مقاطعة درلنتن .

فهجم حزبه وطرد الحزب الاصفر ثم جاءوا بكرسي كبير وقال احدهم لريشار

اصعد الى الكرسي انك بيننا اولى به يا أعظم الرؤساءْ

فاجاب ريشار بصوته الرخيم منشداً

قد جاء يوم النصر فلنفرح بما نلناه من فوزٍ على النبلاءْ
وانا عليهم بالمصائب قادمٌ ويلٌ لهم مني ومن نصرائي

ثم حملوه وداروا به وهو ما يسمونه حفلة الكرسي وكانت عادة في انكلترا بعد الانتخاب

ولما حضرنا تمثيل هذا الفصل لاول مرة كان في اللوج بجانبنا احد الاصدقاء فلما القى الشيخ سلامه خطبة ريشار على الجمع ورأى تلعثمه فيها لانه لم يحفظها جيداً ثم سمع خطبة مناظره ستنسن وجودة حفظه لها قال لنا ضاحكاً ان الذي يسمعها ويراها يقول ان ستنسن هو الذي اقنع الشعب وأثر فيه لا ريشار فهو الذي يجب ان يُنتخب نائباً . وقد ذكرنا هذا الامر هنا خاصة لحث صديقنا الشيخ سلامه على حفظ خطبته هذه لاننا سمعناها من بعد الليلة الاولى مرتين وفي المرتين كان يتلعثم فيها

٤

ولما اصبح ريشار نائباً في مجلس العموم الانكليزي صارت له الكلمة العالية فيه . فاصبح مركز المعارضة للوزارة والسند الاول لحزب الشعب . فكانت الوزارة كلما رامت ان تقرر امراً مهماً عارضها فيه واقنع المجلس ببلاغته وحسن بيانه برفضه وارجاعها عنه . فاصبح ريشار مديراً لسياسة انكلترا كلها فلما اعيت الوزراء الحيل في مقاومته رأوا مسالمته . قال المسيو بيل زعيم الاشتراكيين في المانيا في خطبة القاها منذ عامين في مؤتمر الاشتراكيين العام في امستردام : ان انكلترا لم تنمُ فيها المبادىء الاشتراكية نمواً يُذكر لان طبقة النبلاء فيها كلما رأوا نابغاً من الشعب قادراً على التأثير عليهم وعلى سياستهم فانهم يستميلونه اليهم بكل الطرق حتى يجعلوه مسالماً لهم ويزيلوا معارضته وهذا ما صوّره المؤلف في هذه الرواية فان الوزراء اتفقوا مع صاحب بنك كبير يدعى المركيز سيلفا على ان يخابر ريشار في ترك معارضة الوزارة وفي مقابلة هذا الترك يمنحونه لقب لورد ويزوجونه من احدى بنات اللوردات ويهبونه اموالاً واملاكاً عظيمة ذلك لان ريشار كان يُظهر للناس انه عازب لا متزوّج وكان قد بعث بجاني زوجته الى بيت في البرية خارج لندن لتعيش فيه

وحدها لان نفقات العائلة كثيرة في لندن خصوصاً اذا كانت العائلة عائلة نائب في مجلس العموم وكان ريشار قد انفق كل ثروته لانه لم يتّجر بنفوذه وبلاغته وهنا النقطة المهمة في الرواية

وكان لريشار سكرتير يدعى طمسن وهو الرجل الذي جاءه في الفصل الثاني يغريه بالتزوج بجاني ليعود الى الانتخاب وكان رجل ريشار وصاحب سره فجاء المركيز سيلفا في اول الفصل الرابع يقترح عليه ان يُبلغ ريشار الاقتراحات التي ارسلها الوزراء لاقتراحها عليه فلما قصده في احد دهاليز مجلس العموم رآه واقفاً مع (مبراي) صديق الدكتور غراي والذي اقامه الدكتور حارساً لابنته جاني بعد وفاته ووفاة آنا زوجته وكان مبراي يسكن مع جاني في بيتها في البرية وقد جاء الان في رسالة منها الى ريشار فلما سمع احدى خطبه في مجلس العموم بشان معارضة الوزارة في عقد قرض عظيم قصده في احد دهاليز المجلس فلما رآه ريشار انزعج لحضوره فقال له مبراي: كان يجب عليّ ان انتظرك في منزلك لابلغك الرسالة التي جئت من اجلها ولكن رغبتي في استماع كلامك في مجلس العموم ساقتني الى هنا فلقد سمعت كلامك يا ريشار وقلت في نفسي ان الدكتور غراي رحمه الله لو رآك اليوم بهذه العظمة والسيادة في المجلس لهنأ نفسه بانه منح انكلترا رجلاً عظيماً مثلك

فاجاب ريشار بفتور اشكر لطفك يا سيدي

فقال مبراي: نعم يا ريشار انني باسم جميع محبيك اجهر بانك تجاوزت كل امالهم بصفتك انكليزيًا ولكنك خيبت كل آمالهم بصفتك زوجاً وابناً

وهنا ذكر له تألم جاني لفراقه وحزنها لمعيشتها وحدها في قرية حقيرة لا رفيق لها الا شيخ مثله يمزج دموعه بدموعها وقد مرّ عليها ثلاث سنوات دون ان تراه او يسمح لها بالقدوم الى لندن للمعيشة معه فيها

وفي هذا الحين دخل المركيز سيلفا ليقترح اقتراحات الوزارة على سكرتير ريشار فلما رآه مبراي صُعق وفرّ فراره من الاسد ذلك لان مبراي في الحقيقة هو (الجلاد) الذي تقدم ذكره في الفصل التمهيدي الاول والمركيز سليفا ورد ذكره هناك ايضاً فيكون الاول ابا ريشار والثاني جده

وبينما كان النبلاء والوزراء يتآمرون لاستمالة ريشار وتزويجه من احدى بناتهم ليصبح من حزبهم لانهم كانوا يحسبونه عازبًا كانت جاني المسكينة نحيلة حزينة في منزلها في البرية تبكي وتنشد الابيات التالية

آه من طول وحدتي وانفرادي وشقائي المبرّح المتمادي
وابتعادي عن وجه زوجي حبيبي بل ظلومي الذي يحب ابتعادي
عشتُ من بعده ثلاثة اعوام طوالٍ عليَّ سودٍ شدادِ
لا رفيق ولا سمير يؤاسيني سوى الدمع والجوى والسهادِ
اشتكي لوعتي فلا يسمع الشكوى سوى ما يحيط بي من جمادِ
واعد الغيوم ملقية السمع الى كل خافق مرتاد
آه يا والديَّ خلفتماني لقرينٍ قاسٍ كثير العنادِ
كنتما تحسبانه صادق الوعدِ شريفاً برًّا رحيم الفؤادِ
فحرام عليك يا قلب ريشار جفائي الديَّ اضاع رشادي
انا لا اترك الوداد وان لا قيتني مثل ما تلاقي الاعادي

ومن هنا بدأت اهمية الرواية الحقيقية فاننا من جهة نرى صراعاً بين ريشار والوزراء وهم يطلبون استمالته اليهم بتزويجه من احدى بناتهم ومن جهة ان وجود جاني زوجته اصبح عثرة في سبيل مجد مستقبله فماذا يفعل أيقبل ام لا يقبل ؟ قال احد الفلاسفة : ان الرجل العظيم اذا لم يكن عادلاً مستقيماً كان وجوده آفة وويلاً على الجنس البشري وسنرى في الفصل التالي الهاوية الهائلة التي يجرّ ريشار نفسه اليها

(الخاتمة في الجزء التالي)